

# الدين والنبوة

وحماية البشر إليهما .

بقلم

الأستاذ محمد بن حماد الصقلي

الأستاذ المحاضر بدار الحديث الحسنية بالرباط

والأستاذ الزائر للجامعة

---

● محاضرة أُلقيت على طلاب المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالرياض

## ١ - الحاجة إلى الدين

لا يدوم تقبل الإنسان إلاً للمبدأ الذى توفرت فيه موجبات الاقتناع العقلى ، ولا يستمر تجاوبه إلا مع الهدف الذى تظافرت فيه دواعى الإطمئنان القلبى ، فهو بحكم طبيعته ميال الى التفكير والإمعان ، مجبول على النظر فى العوالم حوله ، وفيما وراء الأكوان . وهو لذلك مفطور على حب معرفة المكنون ، وإدراك الغائب ، لا فرق بين كونه موجودا أو موجدا ، حادثا أو قديما ، وبين كونه حسيا أو معنويا ، واضح المعالم أو خفيا ، وهو فى تطلعه لمعرفة المكنون وإدراك الغائب لا يتحرك فكره الا وفق ما له من الرغبات ، وما يختص به من النزعات . فرغباته ونزعاته تحته باستمرار ، وتحفزه على الاختراع والابتكار ، لكن لا يسلك أفرادها فيها منهجاً موحداً ، ولا يضعون كلهم لها مقياساً محدداً ، فلكل باحث منهجه ومقياسه ، يؤثر عليه فى التفكير ، ويتحكم فى التدبير ، فاختلقت بذلك المقاييس واخلتلت بمقتضاها الأحكام والقيم ، لا فى حد ذاتها ، وواقع أمرها بل بالنسبة الى من يقيسها بمقياسه الخاص ، ويحددها بنموذجه الفردى ، وتبعاً لذلك تعددت المذاهب ، وتكاثرت النظريات ، ورغم امتداد الوجود ، ورغم تيسر الوسائل وتوفر العوامل ، لم يستطع الانسان أن يضع فى نطاقه الكلى مقياس نوعه القادر ونموذج إنسانيته الكامل ، لذلك بقى الخلاف هو الخلاف «ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم» ، فالإشارة بذلك فى الآية الكريمة هى الى الخلاف المفهوم من «مختلفين» وضمير الغائبين فى «خلقهم» راجع إلى عموم الناس ، فيكون سبحانه وتعالى أكد أن البشر يعيشون ، وهم مختلفون لأن وسائلهم المادية والفكرية مهما عظمت لا تؤدى بهم الى الاستقرار التام ، ولا الى الإطمئنان الكامل وهو أمر واقع ، فالإنسان فى تطلع مستمر ، وصراع متواصل ، وانه فردى التفكير ، وان كان اجتماعى التعايش والمصير ، وانه إزاء خالقه لمنقاد له ، وان بدى فى مظهر من له الاختيار ، ومحتاج لمدده ، فليس له أن يدعى الاكتفاء ، ويقام المعرفة ، ومضطر إليه ، لا يسعه إلا أن يُقرَّ له بالعجز والقصور ، فهو عاجز عن تخليص نفسه بنفسه ، وان طار فى الأجواء ، ونفذ إلى أعماق الأراضى والبحار «يا معشر الجن والإنس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض ، فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان» . فالجن وان كانوا مشهورين بالقدرة على الأفاعيل الشاقة ، فهم قد خوطبوا بمقتضى هذه الآية الكريمة مع كافة الإنس

خطاب التعجيز، بأن يتعدوا نطاق السموات والأرضين ، فما استطاعوا ، ولن يستطيعوا لأن قدرتهم لا تفي بذلك ولا تستوفي كل ما هنالك، فالإنسان منذ وجوده وهو يبحث عن نفسه ، وينقب عن حقيقة أمره، ويملاً حياته بأوهام ، ويتطلع الى سراب الأمنى والأحلام ، ويفتر بما نال . وينسى به ما كان محروما منه قبل المنال ، ومنذ وجوده وأفراده ينشدون الانسجام الفكرى ، ويخططون لتحقيق الازدهار المادى، ويبذلون من أجل هاتين الغايتين ما وسعهم من الطاقة، غير أنهم ما خرجوا عن نطاق المذاهب والنظريات ، وما تعدوا حدود الاختلاف على الوسائل والتطبيقات .

نحن لا ننكر أن التطور البشرى أدى الى الازدهار فى كل ميدان ولكنه الى حد الآن ما جعل الطموح يصل الى غايته ، وما حقق للناس ما ينشدونه من الاكتفاء والاطمئنان فما دامت طبيعة البحث عند الانسان قائمة على التباين فى الاتجاه الفكرى ، ومبنية على تغاير التخطيط فى المنهج المادى، فان ازدهار الانسان لا يصل به فى حياته الى ما فيه راحة الضمير، ولا يدرك به كل ما يفتح له آفاقه العقلية والفطرية، لأن ازدهاره هو غير حقيقى، وإنما هو نسبى، والانسان الطموح لا يرتاح الى النسبيات وإنما يفضل الحقائق ، فهو ينشد على مستوى الأجيال المتلاحقة حقائق الوجود الشاملة، وحين ينشدها، لا ينشدها فى نطاقه الكلى، وبجمله الانسانى، وإنما فى نطاق فردى، وبجمال تنافسى، ولهذا السبب كان الطامح الى التطور بغير وازع الدين لا يصدده تطوره أن يكون على حساب المتخلفين من بنى جلدته ، ولا يصرفه تفوقه أن يؤدي الى شقاء النامين والفقراء من أبناء جنسه ، فاذا غاب عنه وازع الدين الصحيح بقى دائما يريد أن لا يتحكم فيه ما هو واقع تحت حسه ، وموضوع أمام نظره ، وكان القهر والتحكم موجودين إزاء تفوقه المادى وتقدمه الآلى «ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى» ، فقد أكد سبحانه بهذه الآية الكريمة أن الانسان حين يستغنى ولا وازع له من الدين يشعر بالاعتدال فيتجاوز الحد فى الانسياق مع هوى النفس ، وفى الانصياع لتحقيق كل رغباتها ، ثم يترتب على ذلك ما ذكرنا من القهر قوله سبحانه : «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبيرٌ بصير» . فالآية الكريمة دلت على أن الغنى الشامل لكل أفراد الانسان يكون معه البغى التام لذلك اقتضت حكمته وسنته سبحانه أن ينزل من رزقه بقدر ما يشاء ليتحقق الأمران الغنى الموجب للشكر، والفقر الموجب للصبر، واذا لم يكن عند ذوى الغنى شكر ووازع دين أدى غناهم ولو بشكل غير شعورى الى

التنكيل بذوى الفقر، والى جحود بعظيم قدرة الله وغناه فبحكم التجربة نجد أن الأنظمة المادية التى هى من وضع الانسان على اختلافها، وخاصة منها المعاصرة اشتراكية كانت أو رأسالية ما وفرت للناس رخاء ، وما حققت بين النامين استقرارا ولا صفاء ، ولتبرير التحكم والقهر والجحود نذكر أن حقائق الوجود التى ينشدها الانسان لا يتأتى بحال عد أحادها، بل ولا تصنيف مجموعاتها، لأنها حقائق الوجود، لا تبرز له بالمرة بل تنكشف له شيئا فشيئا كلما سمت مداركه، وتقدم عمرانه ، وتدرجه فى الاكتشاف يؤدى الى حالتين :

**الأولى:** أن الإنسان وإن كان فى بعض الفترات يسلم أمره الى الكائن المحسوس المكتشف فانما ذلك منه استكان محدود ، واعجاب عارض ، يأتى كتعبير الرضى عما قدمته اليه الظاهرة الكونية التى اكتشفها من التسهيلات ، وما وفرت له من الامكانيات ثم لا يلبث أن ينبهه شعوره الانانى الى أن ينظر الى تلك الظاهرة المكتشفة بالمنظار الواقعى، ويحكم عليها بأنها كبقية الظاهرات لم تنكشف له الا بفضل سعيه ، ولم تصبح أداة لتطوره الا بمقتضى كده ، واعمال فكره ، فمكتشفات الانسان مألها قلة الاكتراث ، وان كانت تقطع عنده مرحلة الاعجاب ، ومحجوبات الكون مألها الاكتشاف لأن الطموح الانسانى لا يسمح لها بأن تبقى غائبة عن الأذهان مستورة عن العيان ، والسابق فى طموحه ومن له القدرة الأكبر على الاكتشاف يواصل اندفاعه نحو اكتشاف المجهول، ولو أدى به اندفاعه الى قهر من بقى متخلفا عنه والى التحكم فيه ، والسطو عليه لجعله مطية للوصول الى غاياته البعيدة .

**والثانية:** أن أى مجتمع إنسانى يقطع النظر عن النظام الذى يتقيد به اذا توصل أفراده الباحثون الى الكشف فى ظاهرة أو أكثر من ظاهرات الوجود ، فإنه بعد اقتداره على تسخيرها وتمكنه من استعمالها تتغير أوضاعه الاجتماعية والفكرية عما كانت عليه الى ما هو أحسن، ويصير أكثر تقدما بمقتضى هذا التقدم تكثر مصالحه وتزايد حاجياته ، فيطمح الى توفيرها من المجتمع الذى بقى دونه فى التقدم ، وينافسه فى الحصول عليها المجتمع الذى يزاحمه فى الازدهار ويواكبه فى الاقتدار، وحينئذ تشتد أطماع المجتمعات المتقدمة، فتتسابق لبسط النفوذ على المجتمعات المتخلفة، وبذلك يحتل توازن الحياة فى المجتمعات البشرية، ثم يتصدع بالتالى صرح الاستقرار، لأن الأطماع تدفع الى المكر، والى اختراع أسوأ أساليب الخداع ، ومع الخداع، تسلب الحقوق، وتنعدم معايير الأخلاق والقيم، ويصير التحكم للأقوى «سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا»، فمن عرف سيرأخبارا لماضين، وتقصى مراحل

حياة الناس العارية عن وازع ما صح من الدين ، وقف على مآذركناه من الحقيقة، وعززته بوضوح هذه الآية الشريفة، فالشأن في الانسان الذى يحىي موكولا الى نفسه، ومعتمدا في تصريف شؤونه على خصوص تدبيره أن يزدهر، ولكن ازدهاره يتفاوت ويتطور، غير أن تطوره لا يخلو من الصراع والتزاحم، وأنى لازدهاره فيه التفاوت، ولتطور فيه الصراع والتزاحم أن يوفر لجميع المجتمعات البشرية الاكتفاء والرخاء والأمان، فلن تتيسر لجميع المجتمعات البشرية أسباب التطور الشمولى ووسائل الازدهار العمومى، الا بوازع أقوى من العقل الانسانى، وأكمل من أى تدبير بشرى، انه وازع دين ربانى ختم به سبحانه الأديان السماوية .

انه دين الاسلام فهو المنهج الإلهى به تتسع المواهب وتنمو الملكات ، وتنشط المقدرات ، دون تعد ولا خداع ، فقد تناول بالتوجيه وبالارشاد مدارك الانسان ومواهبه، وملكاته ومقدراته حتى تنمو وتتكامل، الى أن تبلغ به الى مقام الخلافة، الذى ما هو الا قدرته على حسن التصرف في هذا الكون الذى خلقه الله تعالى : «واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة» فجاعل مشتق من الجعل وهو إما بمعنى التصيير، وإما بمعنى الخلق، والخليفة هو من يخلف غيره، وينوب عنه، فالانسان خليفة الله فى أرضه، لا ينبغى له أن يتصرف الا بمقتضى تعاليمه، وما هى الا تعاليم الأديان التى جاء بها الأنبياء والرسل، وختمت بالاسلام الذى بعث الله به محمدا عليه السلام . فلولا الإسلام لما كانت للانسان صلة بالحقيقة المطلقة التى هى من مدد الوحي، ولما حسن التوجيه فى الحقيقة المحدودة التى لا تأتى الا من زاوية عقله الخاصة به ، لأن العقل لا يدرى الا ما يلائم وظيفته، ويخضع لمقاييسه فمنهجه فى الادراك لا يعدو به عن الاطلاع عما حوله من الأكوان وأما من أبدع الكائنات، فتستحيل على العقل الانسانى معرفته بكنهه ، وادراكه بحقيقته ، ومن الأفراد من حاولوا أن يتخطوا المستحيل وظنوا أنهم بتسخير مجهودهم الفكرى، وتركيز طاقتهم العقلية يستطيعون أن يصلوا الى تلك الغاية، فكم أتوا بالنظريات، وعززوها بالاستشهادات، لكن لا تمر عليها مرحلة من مراحل التطور الانسانى، حتى تصير مضايقة بالمعارضات ومفحومة بالحقائق . الواقع أن أبحاث الانسان الخاصة بكنه الخالق مضى عليها آلاف السنين ، ولم ينتج عنها شئ يذكر ، لأن ذلك المجال لا يمكن أن يقاس بالمقاييس المحسوسة، ولا يتأتى أن يدرك بالمدركات المخلوقة، فالقديم غير الحادث ، وليس من يخلق كمن لا يخلق . فالعقل الانسانى وان تعزز بالوسائل وتقوى بالمؤهلات لا يمكنه أن يتخطى عقبة الممكنات ، فأحرى أن لا يكشف عن رب الكائنات ،

بصرفه عن ذلك عاملان :

أولها : أن مدارك العقل البشرى مهما تقدمت ، فهي محدودة بالحدث ، فأى شكل من أشكال تصورها لذات الخالق يستحيل عقلا أن تكون عليه ذاته سبحانه لأن سائر التصورات حادثة، وذاته سبحانه قديمة، وما عبادة الآوتان التى تورط فيها الانسان أحقابا عديدة الا نتيجة حتمية لاتجاه العقل نحو التجسيد .

وثانيهما : ان معرفة كنه ذاته سبحانه تفرض على الانسان أن يعتمد فيها على مقياسه المادية، ووسائله الحسية : والشأن فيما يدركه الانسان بوسائله ، ويتوصل اليه بمقاييسه ، أن يكون مآله الإعراض وقلة الاكتراث ، وما موجة الالحاد المنتشرة إلا نتيجة حتمية للاتجاهات المادية السائدة ، فالفضل كل الفضل فى انقاذ البشرية من ضلال الوثنية راجع الى الدين الاسلامى، ويتجلى ذلك فى سببين :

الأول : أنه فتح للعقل المجال فى البحث والاستنتاج ، وفسح لطلاب الحقائق الكونية باب التفكير على مصراعيه ، يؤيد كل دعوى بالبرهان، ويعزز كل قول بالحجة والبيان ، فتكسرت بذلك أغلال العقول ، وانقضت سحب الانحراف التى كانت تطبق أرجاء العالم من أقصاه الى أقصاه ، وتحركت قوة التفكير، ولم تعد كما كانت معطلة، فانطلقت فى اتجاهها الصحيح تدك حصون الوثنية، وتدوس قلاعها المنيعه ، وسرعان ما تبددت عبادة الأصنام وزالت مظاهرها الى الأبد، وأدرك العقل أنه على عهدها فى منتهى السذاجة، وغاية البساطة، وسوف يعمل الاسلام من جديد على نبذ الالحاد ، والرجوع الى الدين الصحيح ، الذى أنار الله به سبيل الابداع والاختراع ، والخلود فى ميادين الحياة كلها . فما من قرن يمضى الا ويبعث الله فى بابيه من يجدد أمور الدين ، ، ويصلح شؤون البشر المنحرفين ، روى الامام أبوداود فى سننه فى باب ما يذكر فى قرن المائة عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه عليه السلام قال: «ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» ومن فى الحديث الشريف تشمل الواحد وأكثر من الواحد ، ونحن نتوسم فى امامى الدولتين الشقيقتين السعودية والمغربية الخير الكثير المؤدى الى صلاح الاسلام والمسلمين ، ليكون منها المجدد لأمر الدين فى العالم الاسلامى ، يعملان على جمع كلمة المسلمين ، والرفع من شأن الأمم الاسلامية بنشر العلم والعدل ، وقهر الصهانية ، وتحرير بيت المقدس أولى القبلتين ، وثالث الحرمين .

والسبب الثانى : ان الاسلام هو الذى أبان للانسان أن مدد الوحي هو فوق الطاقة

العقلية، وفوق طاقة الملكات والحواس ، وهو الذى يسير بالكل فى منهجه القويم وفى اتجاهه الصحيح .

ومعنى الوحي شرعا : «الاعلام بالشرع» وقد يطلق الوحي ويراد به اسم المفعول منه أى الموحى وهو كلام الله المنزل على النبى صلى الله عليه وسلم «قال الحافظ ابن حجر ، وكلام الله النازل على نبينا صلى الله عليه وسلم وهو إما باللفظ وهو القرآن والحديث القدسى وإما بالمعنى، وهو الحديث غير القدسى قال سبحانه : «وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى» ، (فجملة يوحى فى الآية الكريمة هى صفة مؤكدة لوحى، رافعة لاحتمال المجاز مفيدة للاستمرار والتجدد) ، والوحي بهذا المعنى كما تحقق لرسول الله صلى الله عليه وسلم تحقق أيضا لمن سبقه من الأنبياء والرسل ، وقد عرف الامام ابن عرفة من المالكية الإنحاء بقوله: «هو إسراع الكلام القديم بواسطة ملك وبدونه . وهذا التعريف يشمل كيفيات الوحي وهى عديدة منها ما كان بواسطة الملك وهى :

١ - إتيان الملك اليه عليه السلام مثل صلصلة الجرس . وهذا أشده عليه فيلتبس به الملك حتى ان جبينه ليتفصد عرقا، وفى النشر الطيب، قيل كان ينزل هكذا عند آية وعيد أو تهديد .

٢ - إتيانه إليه عليه السلام فى صورة رجل فيخاطبه حتى يعى عنه ما يقول له ، وعلى هذه الكيفية كان يراه الصحابة أحيانا، وهذه الكيفية أهون عليه صلى الله عليه وسلم، والكيفيتان فى حديث رواه البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام رضى الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول» قالت عائشة رضى الله عنها : «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا) .

٣ - القاء الملك فى روعه عليه السلام من غير أن يراه وساق ابن القيم للاستشهاد على هذه الكيفية قوله صلى الله عليه وسلم «إن روح القدس نفث فى روعى انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فان ما عند الله لا ينال الا بطاعته .

٤ - اتيان الملك فى النوم، وعد قوم من هذا سورة الكوثر، وفى حديث عائشة عند البخارى انها قالت : أول ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح .

٥ - اتيان الملك اليه عليه السلام فى صورته التى خلقه الله تعالى عليها ، فيوحى اليه ما شاء أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين كما ذكر ذلك تعالى فى سورة النجم قال سبحانه : «فاستوى وهو بالأفق الأعلى» .. (أى استقام على صورته الحقيقية التى خلقه الله تعالى عليها ، وذلك عند حراء فى مبادئ النبوة ) فالاستواء فى الآية بمعنى اعتدال الشئ فى ذاته ضد الإعوجاج وقال سبحانه : «ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى» فالنزلة الأخرى فى الآية: المرة الأخرى، وكانت أيضا وهو على صورته التى خلقه الله عليها .

والكيفية التى لم تكن له عليه السلام بواسطة الملك هى :  
كلام الله له منه اليه بلا واسطة ملك كما كلم الله موسى بن عمران ، وهذه المرتبة هى ثابتة لموسى قطعا بنص القرآن، وثبوتها لنبيينا صلى الله عليه وسلم فى حديث الإسراء ، وكلام الله له عليه السلام فى الإسراء كان يقظه وكلمه سبحانه مناما كذلك كما فى حديث أتانى ربه فقال فيم يختصم الملائ الأعلى .  
والدين هو ما أوحاه الله الى الأنبياء وختمه بالاسلام فناسب أن نتكلم على مفهوم الدين .

## ٢ - الدين

### تعريف الدين :

للدين فى اللغة عدة معان . منها الجزء مطلقا كان على فعل الخير أو على فعل الشر وورد تفسير الدين فى قوله تعالى : «ملك يوم الدين» بالجزء فى حديث مرفوع أخرجه عبدالرزاق بسنده الى أبى قلابه عن النبى صلى الله عليه وسلم وهو مرسل، ورواه عبدالرزاق أيضا عن أبى قلابه موقوفا على أبى الدرداء ومن هذا المعنى قولهم فى المثل «كما تدين تدان» وعليه أيضا قوله تعالى : «إذا متنا وكنا ترابا وعظاما ما إنا لمدينون» . وجعل منه الشيخ مرتضى فى تاج العروس شرح القاموس قوله صلى الله عليه وسلم (اللهم دنهم كما يدينوننا). ومن اللغويين من



يفرق بين الدين والجزاء فيجعل الدين مختصا بالجزاء بقدر فعل المجازى، فيكون بينها عموم وخصوص مطلق فالجزاء أعم والدين أخص . فكل دين جزاء ، وليس كل جزاء ديناً، ومنها الحساب ، وروى تفسيره به أيضاً في قوله تعالى : «ملك يوم الدين» . كما روى تفسيره به عن مجاهد وعن ناس من الصحابة في كل من قوله تعالى : «كلا بل تكذبون بالدين» وقوله سبحانه : «فلولا ان كنتم غير مدينين» .

ومنها التمكن من الشيء ، ومنه الحديث الذى رواه الامام أحمد والترمذى في القيامة وابن ماجة في الزهد واللفظ للامام أحمد عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله» والفعل منه بهذا المعنى يتعدى بنفسه كما في الحديث .

ومنها الطاعة ، ومنه قوله تعالى : «ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله» ومنه الحديث الذى رواه الامام أحمد والترمذى وابن ماجة واللفظ لأحمد عن أنس رضى الله عنه قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : يا مقلب القلوب ثبت على دينك) ، والفعل منه بهذا المعنى يتعدى باللام فيقال دان له .

أما الدين في عرف الشرع ، فقد عرفه الامام ابن تيمية تعريفاً راعى فيه معنى الطاعة فقال : (الدين هو طاعة الله وعبادته علماً وعملاً بالباطن والظاهر، وفي هذا التعريف مراعاة للتنفيذ الصادر عن الانسان المتدين) .

أما الدين من حيث هو، فقد عرفه الإمام أبوالبقاء في كلياته فقال : (الدين هو عبارة عن وضع إلهى سائق لذوى العقول، باختيارهم المحمود الى الخير بالذات قلبياً كان أو قالبياً) فيشمل التعريف سائر الشرائع الإلهية فهي متحدة في أصلها الفطرى، قال تعالى : (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا الى ابراهيم، واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً) ، وهو بحسب اطلاقه الحقيقى خاص بأصول العقيدة كالإيمان بالله وملأئكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره ، فالدين لا يطلق اطلاقاً حقيقياً إلا على الجانب الاعتقادى وهو بهذا الإطلاق كالملة، فهما مترادفان فيما يصدقان عليه ، والاختلاف بينهما انما هو في مفهومهما وفي الاعتبار، لأن أصل الدين روعى فيه الذين يطيعون أوامره ، وينقادون لتعاليمه وهم المؤمنون ، وروعت فيه الطاعة، لأن الدين وان كان معناه لغة الجزاء فقد سميت به الطاعة

لأنها سبب الجزاء أما أصل الملة ، فقد روعى فيه الاملاء ، فيقال أملت الكتاب قال تعالى : «وليملل الذى عليه الحق» وقال أيضا : «فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أولا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل» ثم نقلت إلى أصول العقائد ، والاعتبار في هذا النقل ، هو أن كل مبعوث ، أملاها وبلغها عن الله الى قومه خاصة ، وذلك في حق المبعوثين قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أو الى كافة الناس ، وذلك في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال سبحانه : «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا» ، ونظراً إلى هذا الاعتبار فان الملة لا تضاف الا الى الرسول أو النبي، فهو وحده الذى أملاها، وبلغها عن الله لذلك قال سبحانه : «قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا» . وقال عز وجل : «واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب» . ومع اختلافهما في المفهوم والاعتبار فانها يختلفان أيضا في أن اطلاق الملة خاص بجملة أصول العقيدة لا باعتبار كل عقيدة على حدة فهي لا تطلق ويراد بها ركن واحد من أركان الإيمان ، بأن يقال مثلا : الإيمان بالله ملة، كما أنها لا تطلق اطلاقا مجازيا ويراد بها فرع واحد من الفروع بأن يقال مثلا الصلاة ملة ، ولأن إطلاق الدين ليس خاصا، بجملة أصول العقيدة ، بل يصح إطلاقه على آحاد الأصول، فيقال مثلا : الإيمان بالله دين ، وعلى آحاد الفروع مجازا فيقال مثلا الصلاة دين ، كما تصح الى آحاد الناس فيقال هذا دينى ، ويتفق الدين والملة بحسب إطلاقهما الحقيقى في أمرين :

١ - عدم الاختلاف ، فكل الأنبياء والمرسلين مشتركون معه صلى الله عليه وسلم في الدعوة الى أركان الإيمان فلا فرق بين الرسل ، لذلك قال سبحانه : «لا نفرق بين أحد من رسله» . وقال عز وجل : «قل ما كنت بدعا من الرسل» والكفر فيها ببعض الرسل دون بعض - كما فعل أهل الكتاب - هو كفر حقيقى قال سبحانه : «ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون تؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون» والكفر بها جميعها هو الضلال البعيد، قال سبحانه : «ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا» .

٢ - عدم النسخ فلم يتبدل بالنسخ أى ركن من أركان الإيمان منذ أن بعث الله أول الرسل الى أن ختمهم بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال سبحانه : «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن

أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه» قال أبو العالية : «وما هم بالاخلاص في عبادة الله وحده» .

ورغم اتحاد الرسل في الدعوة الى أركان الإيمان فان تبليغها من قبله عليه السلام هو بشرع الاسلام لا بشرع من سبقه من المرسلين قال الامام أبوالبقاء نقلا عن الامام أبي منصور الماتريدي وغيره : ما ثبت بقاءه من شريعة من قبلنا أو بقول رسولنا صار شريعة لرسولنا فيلزمه ويلزمننا ، على شريعته لا على شريعة من قبلنا، فلو لزمنا شريعة من قبلنا كان رسولنا رسول من قبله سفيرا بينه وبين أمته لا رسول الله تعالى وهذا فاسد .

وقد اختص مدلول الدين لغة وعرفا بدين الإسلام ، وعلى هذا الاختصاص حمل قول سيدنا علي : (محبة العلماء دين يدان الله به) ، قال الراغب ، ومنه قوله تعالى : «أفغير دين الله تبغون» يعنى الإسلام لقوله تعالى : «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين» ، وعليه كذلك قوله تعالى : «هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله» .

ويستفاد من تعريف أبى البقاء أن الدين فى المفهوم الإسلامى يتوقف وجوده على أساسين الأول : الدين وضع الهى ، لا وضع بشرى، وهو أمر ثابت بنص القرآن وبما روى من الآثار فأما الآيات القرآنية فمنها قوله تعالى : «ألا الله الدين الخالص» ، وقوله عز وجل : «وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين» ، وأما الآثار فمنها الموقوف ومنها المرفوع ، فمن المرفوع ما رواه الامام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : قال صلى الله عليه وسلم : ان الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وان الله عز وجل يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين الا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، الحديث . ومن الموقوف ما رواه على بن ابراهيم عن على كرم الله وجهه قال : «ان المؤمن من أخذ دينه عن ربه ، ولم يأخذه عن رأيه.. الخ الحديث» .

ويعتضى كون الدين وضعاً إلهياً ، فالمبادئ البشرية التى تبرز للوجود نتيجة لعبقرية خاصة أو لنظرية مدروسة لا تعتبر فى العرف الشرعى ديناً لأنها خارجة عن كونها وضعاً إلهياً، فالعقل البشرى مهما اتسع أفقه ، فهو محدود لم يستطع الى الآن أن يتمكن من هذا الكون المحدود فكيف يستطيع أن يحيط بسر الوجود، فالدين بالنسبة اليه كالمصباح يستمد منه نور

الهداية الى نظام سليم ، فالإنسان الذى يضع نظام حياته وهو فى معزل عن الدين الذى هو من وضع الإله لا يد أن يصطدم بالمتناقضات ، وأن يخضع لمؤثرات البيئة التى يعيش فيها ، وأن تكون مبادئه ونظمه عرضة للتفاوت والاختلاف ، وكل هذا لا يؤدى الى الإطمئنان المنشود بل يحرم الإنسان من الهناء ويسقطه فى هوة الشقاء ، وإذا كان الدين هو مصباح العقل ، فلا يتأتى بحال فصله عن الحياة الإنسانية، ولا إبعاده عن الأنظمة البشرية، فالنظام الشيعى قاوم الدين ، ففقد الإنسان بسببه إرادته ، والنظام الرأسمالى أغفل أمر الدين ، فزعم أنه لم يعترف به كما أنه لم ينكره وقرر فصله عن الدولة ، وجعل الانسان هو الذى يضع نظامه فى الحياة ، ونادى بحرية العقيدة بأن يعيش الناس أحراراً فى عقائدهم يفكرون كما يحلوهم ، ويعتقدون ما تملبه عليهم شهواتهم وأهوائهم ، لا يجدون من سلطة الدولة أى عائق ولا من قانونها المطبق أى معرقل فسادت الفوضى وعمت البلوى . وأما الإسلام فلم يترك لأهل الباطل أن يسموا المجتمعات باعقاداتهم الفاسدة، ولم يجعلهم يعيشون كما يحلوهم ، بل ضرب على يد المفسدين ، وسلك بالأفراد والجماعات مسلك الحياة الآمنة السعيدة ، وبهذا يتضح أن ما انتشر فى العالم من قلق نفسى، واضطراب أخلاقى، ناشئ عن الغاء الدين فى النظام الشيعى وعن إهماله فى النظام الرأسمالى . أما الفلاسفة والمفكرون فقد ورطوا أتباعهم فى ظاهرة المثالية الوهمية، أو فى ظاهرة الرفض الفوضوية . وأما المهتمون بعلوم الحياة ، العلوم البيولوجية الذين غزت كتبهم الأفكار، وانتشرت فى كل الأمصار فهم يجعلون الدين ناشئاً عن بيئة الإنسان قال الدكتور: «دوبر هانسكى» فى كتابه حول الوراثة والبيئة ، «فالأعراض التى تصيبنا، واللغات التى نتكلمها والأديان التى تؤمن بها هذه كلها لا تحددها الوراثة بل تحددها البيئة التى نعيش فيها» فشتان بين المنزلة التى للدين عند المسلمين، وبين المنزلة التى للدين عند غير المسلمين. فعلى المسلمين أن يتحرروا مما وقعوا فيه من الإنقياد الفكرى ويهتموا بترائهم المجيد فيه يصححون الأوضاع ويتحررون من وصمة الإنقياد والإتباع . أما الأساس الثانى الذى يستفاد من تعريف الدين عند أبى البقاء فهو أن الدين ليس مجرد أشكال وظواهر فهذه وحدها لا تسوق الى الخير بالذات بل ان روح الدين منوط بما يسوق ذوى العقول الى الخير بالذات باختيارهم المحمود كما ورد فى التعريف ويتحقق ذلك بأمرين : الأول : تصفية الأرواح والعقول من الشوائب والأوهام . والثانى : اطلاع القلوب بحسن القصد فى جميع الأعمال فبحصول هذين الأمرين تطلق الفطرة من قيودها العائقة لها عن بلوغ كماها فى انسانها الفردى وانسانها الجماعى، وتجعل المؤمن يقيس الأشياء بالمقياس الشرعى، لا بمقاييس

الهوى . قال الشيخ رشيد رضا عقب ذكره لهذين الأمرين : «وأما أعمال العبادات فانما شرعت لتربية هذا الروح الأمرى فى الروح الخلقى لذلك شرط فيها النية والإخلاص» .

فلا صلاح للإنسانية الا بالدين الذى ارتضاه الله لها وهو الإسلام ولا منقذ لها الا رسول الإنسانية محمد عليه السلام ، فهو الذى فتح امام الانسان طرق الكمالات التى لا يسعد الا بها ، ولا يقطع مراحل النجاة الا اذا فاز باستيفائها، وهى ثلاث كمالات :

الكمالات النفسية ، الكمالات البدنية ، والكمالات الخارجية .

وأهمها وأشرفها الكمالات النفسية ، وهى متوقفة على عاملين ضروريين :

الأول : نفسى محض وهو العلم اليقينى، ولهذا العامل أساس وغاية، فأساسه معرفة الحق لذاته ، وغايته توحيد الخالق .

والثانى : نفسى بدنى، وباعتباره البدنى تتحقق الكمالات البدنية، وهو العمل الصالح ، ولهذا العامل كذلك أساس وغاية، فأساسه معرفة الخير لأجل العمل به ، ولأجل الحرص على اتخاذ مسلكه ، وغايته الاستقامة، فتوحيد الخالق هو غاية العلم اليقينى، والاستقامة هى منتهى العمل الصالح ، وحصول الغايتين مع اجتماعهما فى الشخص منوط بالكمالات الخارجية، وهى منحصرة فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاذا احتمت النفوس بالاعلام فانه يحميها ، ويضمن نجاتها ، بما يمدها به من مناهج الخير اللائقة بطبائعها المختلفة . فالدين المحمدى يتوخى المعرفة على أوسع نطاقها مع جعلها مقرونة بالاستقامة التى هى أجل مظاهر الطاعة «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول» فالمعرفة اذا خلت من الطاعة لرب الكون ، ولرسول الإنسانية، وان عظمت ، وانسلخت عن المرونة، وان وصلت الى ما وصلت ، فلا وزن لها فى تحقيق الرخاء، ولا عبرة بها فى المحافظة على التضامن والإخاء ، فالطاعة لله ورسوله القائمة على المعرفة، تلعب دورها فى المعتقدات ، فبفضلها تسلم من التردد والتوهات ، وتبرز قيمتها فى أحكام العبادات والمعاملات ، فبسببها تؤدى فرائض الله على التمام ، وقد اقترنت الغايتان فى آيتى فصلت والأحقاف قال تعالى : «ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا» ، وقال : «ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» . فعلى جميع الكمالات المذكورة المدار لتحقيق العبقرية الإنسانية، وتوفير الازدهارات الحقيقية، اذ بتفاعلها يحسن استغلال كل طاقات العبقرية، والثلاثة مستفادة من قوله تعالى : «قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت

علي وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأصلح لى فى ذريتى، انى تبت اليك ، وانى من المسلمين» فشكر النعمة راجع الى اصلاح القلب ؛ والعمل الصالح مرتبط باصلاح الجوارح ، والاصلاح فى الذرية توفيق من الله ، لتحقيق الشفقة على الخلق ، وكثيرا ما كان عمر بن عبدالعزيز يدعو ربه بهذه الآية ، وحق لكل مؤمن أن يدعو بها ربه ، انها تمد النفس بقوتها السالمة ، وقد الشخص بانسانيته الطاهرة ، والنفس السالمة اذا صدرت عن انسانية طاهرة كانت كل أعمال الشخص الذى يرتبط بها ، وينتمى اليها ، موفقة صالحة ، ومباركة ناجحة ، قد يعجز الفرد الواحد وحتى الجماعة ، عن الاتيان بما يماثل تلك الأعمال ، أو عن تحقيق نظير لما ينتج عنها من الكمال ، فصاحب هذه النفس القوية المطمئنة يلهمه الله حسن التدبير ، وبوفقه لإتقان التسيير ، ويجعله فى كل ذلك ينسجم انسجاما كاملا ويتجاوب تجاوبا عاما شاملا مع عالمه الخارجى ، ومحيطه المادى .

ان الظاهر بهذه الثلاثة مالك لزام أمره ، لا ينساق مع الهوى ، ولا تطفئ عليه زينة الحياة الحسية ، ولا تغريه اللذات المادية ، بل على العكس من ذلك يتخذ منها حافزا الى الخير ، ووسيلة للاتيان بأعمال البر .

وما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، الا منهج الانسانية القويم فى تلك الكمالات ، بفضلله انفكت قيود الأفكار ، وتحطمت اغلال العقول ، وتهذبت النفوس ، وارتقى قدر الإنسان ، فعبد الله كما أمره ، وطبق تعاليم الاسلام وأطاع رسول ربه ، وتعاون مع خاصته ومع العامة ، وللمحافظة على هذا السمو جعل الله هذا الرسول اسوة الناس الحسنة ، وقُدوتهم المرضية قال سبحانه : «لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة» ففى الآية قسم ربانى ، وفيها مع القسم تجريد لزيادة المبالغة فى أنه عليه السلام هو وحده دون سواه الاسوة ، وهى كما قال الراغب : (الحالة التى يكون عليها الانسان فى اتباع غيره أى : والذى بعثك بالحق لأنت منذ كنت وستبقى المقتدى الحسن للبشر الذين يرجون وينشدون سعادة الدنيا والآخرة) فقد جعل الله رسوله قدوة فى نفسه ، وأوجب على الناس الاقتداء به لذلك أخذ أئمة الإسلام الاسوة الحسنة بسائر ملابساتها ، وكافة جوانبها حتى تكامل فى قلوبهم ، وفى عقولهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلهم الأعلى وكما لهم الأكبر فى البشرية ، من غير أن يتعدى صلى الله عليه وسلم عندهم نطاق الحدث . والآية عامة فى اتباع كل أفعاله صلى الله عليه وسلم لا

فرق بين كونها عبادات أو معاملات أو وجدانيات ، ولا فرق بين كونها أفعالا توجب الاتباع أو هي عادية تبيح الاقتداء ، يشهد لذلك أحاديث كثيرة منها :

- ما روى البخارى فى صحيحه فى باب متى يحل المعتمر عن عمرو بن دينار قال ، سألنا بن عمر رضى الله عنهما عن رجل طاف بالبيت فى عمرة ولم يطف بين الصفا والمروة آیاتى امرأته ؟ فقال : قدم النبى صلى الله عليه وسلم . فطاف بالبيت سبعا ، وصلى خلف المقام ركعتين ، وطاف بين الصفا والمروة سبعا ، وقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة قال : وسألنا جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، فقال : لا يقربنها حتى يطوف بين الصفا والمروة .

وروى الترمذى فيما جاء فى الوتر على الراحلة ، وقال حديث حسن صحيح عن سعيد بن يسار قال : كنت مع ابن عمر فى سفر فتخلفت عنه فقال : أين كنت ؟ فقال أَوْتَرْتُ : فقال أليس لك فى رسول الله اسوة حسنة ، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر على راحلته .

وروى ابن ماجه عن عيسى بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب قال : حدثنى أبى قال : كنا مع ابن عمر فى سفر ، فصلى بنا ، ثم انصرفنا معه ، وانصرف . قال : فالتفت فرأى اناسا يصلون فقال : ما يصنع هؤلاء ؟ قلت يسبحون ، قال : لو كنت مسبحا لأتممت صلاتى يا ابن أخى انى صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزد على ركعتين فى السفر حتى قبضه الله ، ثم صحبت أبابكر فلم يزد على ركعتين ، ثم صحبت عمر فلم يزد على ركعتين ثم صحبت عثمان فلم يزد على ركعتين ، حتى قبضهم الله ، والله يقول : «لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة» .

وأخرج عبدالرزاق فى المصنف عن قتادة قال : هم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أن ينهى عن الحيرة فقال رجل : أليس قد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبسها قال عمر بلى : قال الرجل : ألم يقل الله تعالى : «لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة» فترك ذلك عمر رضى الله تعالى عنه .

وأخرج الشيخان : وغيرها عن ابن عباس قال : اذا حرم الرجل عليه إمرأته فهو يمين يكفرها وقال : لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة .

فهذه الأحاديث وغيرها كثير ، أكدت مدى حرص الصحابة رضوان الله عليهم على الاقتداء الكامل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكدت كذلك أن اتباع الرسول عليه

السلام في أى مكان وجدوا، وفي أى زمان تواجدوا أنيطت بهم مهة الاقتداء برسول الانسانية صلى الله عليه وسلم، اذا صانوها سموا، وان فرطوا في أمرها كبوا، فما أحوجهم الى القدوة الحسنة في هذا العصر الذى يتخطون فيه سائر مخلفات السوء ، وما أحرهم أن يتحلوا بحلتها القشبية اذ بها يتواصل امتلاء القلب باليقين، ويتبوأ المسلم من جديد أعلى عليين . وما أحوجهم كذلك الى أن يجددوا في أنفسهم وفي سلوكهم بحجى الرسول الذى جعله الله مرتبطا بالوجود الانسانى ومتواصلا مع تواصل الحياة البشرية . قال تعالى : «يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم وان تكفروا فان الله ما فى السماوات والأرض ، وكان الله عليا حكيما» .

ومن تمام الكلام على الدين نتعرض الى موضوع شغل الباحثين وتعثر فيه الكثيرون من المسلمين وهو أولية التعبد .

### أولية التعبد :

تعبد الإنسان منذ عصوره الأولية، وتدين في حياته البدائية، ويتخذ المؤرخون من مظاهر الطبيعة العجيبة النافعة، وتقلبات الكون الغريبة المخيفة أساسا لنشوء الديانة، وسببا في انتشار العبادة، فهم يرون أن الرعود القاصفة، والبروق الخاطفة، وقطع النيازك التى تنزل أحيانا من السماء والسيول الجارفة التى تنذر بالفناء، كلها أشياء أفزعت الإنسان في تلك العهود وأشعرته بأنها قوة قاهرة خارقة في هذا الوجود، لم يتمكن من معرفتها ولم يستطع أن يأخذ أية صورة عن واقع الأمر فيها، فنتج عن ذلك أن أحاطها بهالة من التقديس والاحترام، وبوأها من نفسه مقام الإكبار والإكرام، واعتقد أنها هى مصدر نفعه، وسبب ضره، فعبدها ليستجلب منها الخيرات، ولتدفع عنه المضرات، ومن أجل ذلك خضع الإنسان البدائى للكواكب واله الأصنام وغيرها، هذه هى مرحلة تعبد الإنسان الأولي ، وهى كما يزعم المؤرخون مرحلة خوف ورجاء، كان الانسان فيها يخاف من كل شئ، ويرجو النفع من كل شئ، ولا يتقي شره ويأمل نفعه الا بالمضروع له ، وعبادته، فالديانة في هذه المرحلة كانت بدائية كما أن شؤون حياة الانسان فيها كانت أيضا بدائية، فمن أجل الخوف والرجاء تكاثرت المعبودات حتى صعب استقصاؤها، وتعذر تعدادها، ثم تخطى مرحلة الدنو هذه الى مرحلة أسمى، فكما ترقى في مناهج حياته، وفي العلوم والصناعات ترقى أيضا ادراكه الدينى، فاجتاز مرحلة تعدد الآلهة من غير تمييز الى مرحلة



تعددتها مع التمييز والترجيح، بأن أعطى رئاسة الآلهة لواحد منها ، تتوفر له عوامل التصدير والزعامة، ثم خرج الإنسان من مرحلتى تعدد الآلهة الى مرحلة عبادة الاله الواحد ، وقد تأثر بهذه النظرية كثير من الباحثين المسلمين نذكر من بينهم العميد الركن «طه الهاشمي» في كتابه «تاريخ الأديان وفلسفتها» ومما جاء فيه قوله : «فكرة الدين مندججة بالانسان منذ أول نشأته، وقد دل التنقيب على أن البشر حتى في أدوار ما قبل التاريخ ، كان متأثرا بفكرة الدين» الى أن قال : (ومن الجلى أن فكرة الدين هذه كانت ساذجة تتصف بالخوف والرجاء ، الخوف من مظاهر الطبيعة المخيفة، والرجاء من مظاهرها الخيرة ) .

ومن نصوصه في هذا المجال قوله : (واذا كان الدين ظاهرة وحاجة اجتماعية رافقت البشر منذ أول نشأته بحيث لم تخل جمعية بشرية من دين يلانم طباعها ويوافق بيئتها، فمن الطبيعي أن يتجلى للباحث المقارن من دراسة الآثار التى اكتشفها العلماء فى الأطلال الدوارس التى لايزال بعضها يتلبس حضارة الدور الحجرى - أن فكرة الدين تطورت من حالة بدائية ساذجة الى حالة عالية متكاملة، وأن لرقى الفكر البشرى نصيبا كبيرا من هذا التكامل) ثم ساق قوله تعالى : «وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى، فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون، انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين» ، وادعى أن هذه الآيات هى اشارة رمزية للتدرج من الوثنية الى التوحيد، وهو ادعاء باطل لأن التدرج يحتاج الى حقب زمانية متباعدة ، وتطورات فى أحوال الحياة البشرية، والآيات انما هى استدلال بالأثر على المؤثر وبالمصنوعات على وجود صانعها .

وبعد هذا شرح كيفية التطور من الوثنية الى التوحيد فقال : (هكذا تطور التفكير الدينى لدى الانسان الأول حتى اعتقد بقوة الروح ، وآله مظاهر الطبيعة مما شاقه واستراح اليه كالشمس والنار والربيع وما خافه واضطرب منه كالظلام والعاصفة والرعد والصاعقة، وهكذا اتخذ من هذه المظاهر آلهة خير وآلهة شر، ثم أمسى وثنيا من فى اعتقاده يعبد الأحجار والأشجار ولما تدرج فى سلم الرقى وسها ادراكه، وفطن الى أنه لا يجوز أن يكون للأحجار والأشجار الحول والطول أعرض عنها، وعظم الروح التى توهمها فيها، وزاد من شأنها، ونسب اليها

قدرة التصرف في الكائنات خيرا وشرا، ثم صار مشركاً يعبد آلهة متعددة يتقرب إليها بالصلوات ، ويتقى شرها بالأضاحى والنذور ، بيد أن البشر لم يستمروا على هذا الاعتقاد طويلا ، بل لاحظوا النظام الباهر الذى تسير عليه الأكوان ، وأخذوا يتساءلون عما اذا كان يجوز لهذه الآلهة المتعددة أن تتصرف في الكون بذلك النظام دون أن تكون خاضعة الى سلطة أعلى منها مقاما وأعظم شأنًا، وكان يرى في نظام الحكم الذى يخضع اليه مثلا لذلك ، وهكذا وضع إلهاً أجلاً أعلاه فوق آلهة المتعدين تعمل بأوامره ، وتطور هذا الاعتقاد عند البعض فرأى أنه من الضلال أن يحتاج ذلك الاله الى مساعدة الآلهة الأخرى فأجله ونزهه عن الشركاء واعتقد باله واحد أحد .

ومن بين من تأثر بهذه النظرية أيضا، الأستاذ عباس محمود العقاد فقد جاء في كتابه «الله» عند شرحه لأصل العقيدة قوله : (ترقى الانسان في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات ، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات وليست عناصر الحقيقة في الواحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى، وزاد فقال : (وينبغي أن تكون محاولات الانسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات، لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلبا، وأطول طريقا من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة، التى يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى). وفي موضع آخر من بحثه في هذا الموضوع قال : (يعرف علماء المقارنة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب، وهى طور التعدد، وطور التمييز والترجيح، وطور الوحدانية، ثم أخذ يبسط القول عن كل واحد من هذه الأطوار) .

من هذه النصوص ، ومن نصوص غيرها كثيرة يتأكد أن نظرية تعدد الآلهة الناشئة عن الخوف والرجاء، قد غزت ميادين البحث عند المفكرين، وغمرت مجالات النظر لدى المستنتجين فعادت عندهم حقيقة لا تقبل التردد، وأمرًا ثابتا لا مجال فيه للتجدد، ثم تشعب بها الغربيون والشرقيون على السواء، واقتنع بجودهاها المسلمون وغير المسلمين في جميع الأنحاء، ومعظم هؤلاء ذهبوا الى أن صورة التدين الأولى، كانت تطبعها الخرافات والأساطير، فهى وحدها نقطة ابتداء لتدين الانسان، وبقدر ما كانت تجاربه تتزايد، ومعارفه تتسع، وتأملاته تتنمى، كان تفكيره الدينى يترقى مرحلة بعد مرحلة الى أن وصل على مر الأجيال الى عقيدة

التوحيد التى هى منتهى الكمال، وفى كل من دينه ، ومقومات تحضره فعقيدة التوحيد على هذا حديثه جدا، فهى نهاية المطاف، وهى تمثل الدور الراقى فى تفكير الانسان، وفى عقيدته الحق، اذ لم يصل الى هذا الطور الا بعد أن أوغل فى فاسد العقائد، وأبله الخرافات ، وأفحش الوثنيات، ولسنا ننكر أن بازاء هذه النظرية، التى لا تتوافق مع الاعتقاد الدينى نظرية أخرى تزعمها المدققون من المهتمين بتاريخ الأديان فهؤلاء يذهبون الى أن أفضل الأديان التى ظهرت على وجه الأرض هو دين التوحيد القائم على أن الكائنات كلها خلقها خالق واحد وأوجدها إله غنى عن الشريك، وعن المعين، أما ما عرفته الانسانية من عهود الوثنيات وعصور الخرافات ، وما ساد عندها من فاسد الاعتقادات فتعليبه عند هؤلاء : انه كان بمنزلة الأمراض الطارئة والعلل العابرة، أضرت الى حد ما بالتدين البشرى وبالفطرة التى فطر الله الناس عليها . فعقيدة تعدد الآلهة عرضت للانسان على هذا بمقتضى مؤثرات خارجة عن الطبيعة البشرية، عرفها الانسان فى أطوار من التخلف، وفترات من الجزر الحضارى، ونسجل بارتياح أن أصحاب هذا المذهب أوصلهم البحث الى أن الدين فطرى فى الانسان، وأن العقيدة الحققة هى الإيمان بالاله الواحد، الذى خلق الأكوان كلها ودبر شؤونها واستحق وحده العبادة دون سواه ، ومبعث ارتياحنا أنهم بهذا الاستنتاج ساروا من هذا الجانب فى ركاب الاسلام، مع افتراض أنهم لم يطلعوا وهم يبحثون على عقيدة التوحيد فيه ، وفى الأديان السماوية التى سبقته، وهو ما نستبعده ، فمبدأ الاسلام الاساسى ومبدأ غيره من الأديان السماوية قبل أن تحرف أن عقيدة الاله الواحد أمر فطرى فى الانسان ، قال تعالى : «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون» . أخرج ابن مردويه فى تفسير هذه الآية عن حماد بن عمر الصفار قال : سألت قتادة عن قوله تعالى : (فطرة الله التى فطر الناس عليها) فقال : حدثنى أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «فطرة الله التى فطر الناس عليها دين الله تعالى» ، روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من مولود الا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جذعاء»، وروى الإمام مسلم عن عياش الجاشعنى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى يرويه عن ربه عز وجل قال : (خلقت عبادة حنفاء مسلمين، فاجتالهم الشياطين، فحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما

لم أنزل به سلطانا) وروى الامام الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد من ولد كافر أو مسلم يولد على فطرة الاسلام، ولكن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم فهودتهم ونصرتهم، وبمجستهم، وأمرتهم أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا» . فالفطرة المذكورة فى الآية وفى الأحاديث هى الغريزة الانسانية المهيأة تهية ذاتية، والمستعدة استعدادات أصيلة، لإدراك حقائق الأشياء فى عالم المحسوسات، وعالم ما وراء المحسوسات وهى غير القوة الطبيعية التى للانسان، وبمقتضى الفطرة يكون الانسان المجرد عن العوامل الصارفة مقرا بالربوبية معترفا بوحداية الله وذلك الاقرار هو الوارد فى الآية الكريمة : «ألست بربكم، قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين» فهذه الآية الكريمة أكدت أن عقيدة التوحيد هى الأساس فى تعبد الانسان، ولم يتخل عنها الا بحكم تأثيرات الانحراف ، التى حالت بينه وبين الاعتقاد السليم .

ان الذين ذهبوا الى أن التدين أصله الأصيل هو التوحيد، هم وان ساروا فى ركاب الاسلام التقوا مع أصحاب المذهب الأول فى أمرين :

الأول: تحديد الصورة الواقعية لديانة الإنسان الأولى، وعقيدته البدائية، فجميعهم يصورون الديانة إذاك بصورة يشوهها التفكك، ويطبعون العقيدة بطابع يتجلى فيه التخلف .

الثانى: منهج الدراسة لأول تعبد بأشرف البشر، فزعم تفاير المذهبيين فان أصحابها ينطلقون من المعطيات التى تتجلى لهم من اقتناعهم بأن أول المتعبدين كانوا شعوبا بالغة التخلف، وأما لا تتوفر لهم أدنى مؤهلات التحضر، ولا يحتفظون حتى بأبسط مناهج التفكير الدينى، فحكموا كلهم حكما يقينيا على الانسان بأنه فى أول عهده بالحياة كان فى بلاهة، وانحطاط فكر وفى تفكك ووحشية، لم يستطع بسبب ذلك أن يخلف أية معلمة يمكن أن تدل عليه، وترشد الى أى أثر من آثار وجوده التمدنى، لذلك ألغوا من اهتمامهم دراسة ما قد يكون وجد إذاك من شعوب وأمم، فهى على هذا الحكم شعوب وأمم غيبت عن البحث التاريخى لكونها لا يناسبها الا أن تكون مندثرة وغائبة، ونحن نرى أن اجماع هؤلاء وأولئك ينقصه المستند العلمى المتين ، فليس هناك من الدواعى ما يوصل الى تصحيح المذهبيين فأحرى باعتمادها، بل ان الدكتور محمد بيصار، صرح بخطأ أصحاب المذهبيين، ووجه الخطأ بالنسبة للأمر الأول، أن عصور حياة الانسان البدائية التى كانت وراء ما أطلقوا عليه (العصر

الحجرى الأول) هى عصور ضاربة في القدم، عجز المؤرخون وخاصة منهم المهتمين بتاريخ الأديان، عن أن يتخطوا عتبتها، فأحرى أن يجولوا في مجاهلها، فهي باعترافهم عصور خارجة عن سلطان العلم بعيدة عن متناوله، وما كان خارجا عن سلطان العلم لا يكون الحكم عليه الا رجما بالغيب، ولا يأتى التقرير عنه الا محفوف بالشك والريب، تنعدم فيه أهم مقومات الثقة فيه والاعتداد به ، وهى الصدق واليقين ، فتقديمهم للصورة على أنها واقعية عن الديانة في تلك العصور، هو تنزيل للتخمين منزلة الواقع المشاهد واظهار للشك في مظهر اليقين في المعتقد .

ووجه خطأ المذهبيين في الأمر الثانى : أن معطيات منهجهم قائمة على افتراض غير مقبول فان مقتضاه أن الثابت في أذهان الباحثين، وعلم الدارسين حول الأمم المتخلفة عن ركب الحضارة هو أن تلك الأمم انما وجدت متخلفة منذ بداية تاريخها، وأول عهودها واستمرت على حالها من التخلف ومظهرها من الانحطاط حتى اضمحلت ، دون أن تمر بأطوار من التقلب ، وتعرض لموجات من المد والجزر الحضارى التى يعقبها دائما انحراف في العقائد وبلبلة في الأفكار، وتخلف في الدين، وهذا افتراض لا دليل عليه ، بل لم يصرح به أى باحث بما في ذلك أصحاب المذهب أنفسهم، فالثابت عند المؤرخين والباحثين أن عهود التخلف ، وعصور الانحطاط عاشها البشر بعد انقضاء حضارة سابقة ، وانصراف مدنية سالفة، وعلى أنقاض عهود التخلف شيدت حضارتنا القائمة، وبُنيت مدنياتها الحالية والأمر كذلك بالنسبة لمختلف المدينيات والحضارات ، وبالنسبة لعهود التخلف والانحطاط فكل تخلف يأتى بعد الازدهار وكل ازدهار يسبقه التخلف ، فالحكم اليقيني ببلادة الفكر الدينى في تلك العهود، وبقائه على وضعه حتى اضمحل هو حكم غير مدعم بالحجج ولا مؤيد بالبيانات فلم يبق لنا لتقصى الحقائق، الا أن نواجه هذه النظريات المنتقدة لتوجيهات الاسلام ، فلئن كان المؤرخون وغيرهم يرون أن الانسان في أول عهده بالحياة لم يكن يهدف الا لجمع القوت فهو عالة على الطبيعة، أشبه بالوحوش الفتاكة، كان مجردا عن التفكير الذاتى، بعيدا عن السلوك الخلقى، منسلخا عن الشعور الدوقى في حل من التقيد بالنظام لكنه بفعل مرور الزمن ، وتكرار التجربة أخذ يتطور تدريجيا، ويتحضر شيئا فشيئا، فان الإسلام يوجه الباحثين الى نظرة أكثر عمقا وأوسع مجالا ، فالقرآن يذكر أن الأرض وجدت مهيأة للانسان زاخرة بالنبات والطير، ومختلف أنواع الحيوان ، فهو قادر على أن ينتفع بخيراتها يستطيع العيش عليها «والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم» ، وواضح

كذلك أن أهلية الانسان للثقافة والعلم متركزة فيه منذ بدايته في الوجود، ولا أدل على أنه يرشد الى توفرها فيه من هذه الآية الكريمة وهى قوله سبحانه : «وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانه لا علم لنا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون» بل ان القرآن تجاوز ذلك ، الى أن جعل الانسان الأول خاضعا لقواعد القانون توجه اليه الأوامر والنواهي، وينال جزاء طاعته بالثواب ، كما ينال جزاء مخالفته بالعقاب ، قال تعالى : «وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأرسلنا الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم» ، وما الأمر والنهى مع مراعاة الجزاء الا ثبوت لحقيقة القانون ، قال اسطن : (القانون هو خطاب متضمن أمرا أو نهيا صادر عن سلطة عليا ومصحوب بجزاء، فكم من أوامر ونواهي وجهت الى الانسان منذ عهوده الغابرة، وعصوره الأولية من ذلك نهيه عن اقتراف جريمة القتل) . والقرآن يرشد الى ذلك، فمن بين الآيات قوله تعالى : «واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر، قال لأقتلك، قال انما يتقبل الله من المتقين لنن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بياسط يدى اليك لأقتلك، انى أخاف الله رب العالمين ، انى أريد أن تبوء ياثمى وإثمك فتكون أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين» . فكم من آية دلت على أن الله أحاط الانسان بأعظم عناية، وأكبر رعاية، حيث بعث اليه المرسلين ليسلكوا به منهج الحق في عبادة الله وحده ، ولتبليغه الأحكام التى تجعله في مستوى ما تحمله من أمانة، فالانسان في نظر القرآن رفيع القدر منذ نشأته سليم التفكير حتى في أول عهده، مفطور على الدين، مجبول على البحث والاستنتاج ، ولسنا بصدد تتبع الأدلة بالنسبة لكل من نظرية التاريخ وتوجيه الدين ، ويكفى أن تؤكد أن الشأن في استنتاجات المؤرخين ان تكون افتراضية أكثر من أن تكون واقعية، أو مستندة على نظريات لا يبعد أن تصير مفحومة بالمعلومات التى قد تنتج عن بحث الانسان المتواصل على أن ما هو مدون عند المؤرخين قد يكون مبنيا على قاعدة النشوء والارتقاء ، وهى قاعدة أخذت تضعف حتى عند أصحابها، وما دام الأمر قائما على الافتراض ، فلماذا لا نفترض أن يكون الشبه المزعوم بين الانسان وبين القرد، هو أثرا باقيا من آثار المسخ الذى كان قديما بمقتضى قوله سبحانه : «كونوا قردة خاسئين»

ثم رفع بمقتضى قوله سبحانه : «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون» على أن المؤرخين كثيرا ما يستدلون على توحش الانسان القديم بما هو موجود الآن من الجماعات المتوحشة في كل من الأواسط الافريقية والأسطالية والأمريكية، انهم يذكرون أن تلك الجماعات هى بقايا من الجماعات الانسانية القديمة، ومعنى استنتاجهم هذا، ان الشعوب المتأخرة في عصرنا الحاضر - وما أكثرها - لم يسبق لها أن عرفت الحضارة ولم يتقدم لها أن استظلت في ماضيها بظلال المدنية، فمنذ وجودها وهى على هذا الحال من التأخر، وهذا أمر ساقط بالبدهة ومردود بالضرورة .

ان التوجيه الدينى بقى فى مستواه الرفيع ومركزه القوى، ولم تستطع أية حقيقة علمية أن تبطل مفعوله ، أو تنقص من صلاحيته، وما ذلك الا لكون حقائقه تتصل الى حد بعيد بالاصلاح الجذرى للانسان، والتنظيم الكامل للحياة .  
وقد أناط الله تبليغ الدين بمن اصطفاهم من الأنبياء، واختارهم من الرسل الأصفياء فتناسب أن نتكلم على النبوة .

### ٣ - النبوة

النبوة من السمعيات قسبان :

- ١ - الأمور التى يتوقف عليها السمع كالنبوة، فان ما أخبر به الأنبياء من المغيبيات مسموعة بواسطة تبليغهم عن الله، فكان سماع تلك المغيبيات متوقفا على نبوتهم .
  - ٢ - الأمور التى تتوقف هى على السمع كالمعاد وأسباب السعادة والشقاوة من الإيمان والطاعة والكفر والمعصية فانها جميعها متوقفة على سماعها من النبى الذى أخبر بها عن الله تعالى، وللنبى معنيان : معنى لغوى ومعنى اصطلاحى . أما معناه اللغوى فيختلف باختلاف المصدر المأخوذ منه ، فان اعتبر أخذه من النبأ كان معناه الخبر، وهو مهموز مخفف، ومناسبته للعرف جاءت من كونه مخبرا عن الله تعالى. وان اعتبر أخذه من النبوة كان معناه المرتفع، ومناسبته للعرف جاءت من كون النبى عالى الشأن ساطع البرهان، وان اعتبر أخذه من النبى كان معناه الموصل ، ومناسبته للعرف جاءت من جهة كون النبى وسيلة الى الله تعالى .
- وأما المعنى الاصطلاحى فقد قال الامام العنجدى فى مواقفه : من قال له الله ارسلتك أو

بلغهم عنى ونحوه من الألفاظ ، وحذف فى التعريف معمول أرسلتك ليعم من كانت نبوته خاصة، وذلك فى حق الأنبياء قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، أو من كانت دعوته عامة، وذلك فى حق خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم فيكون التقدير، من قال له الله أرسلتك الى قوم كذا . ومثاله قول الله تعالى «وأرسلناك للناس رسولا» .

وعوم بعثته صلى الله عليه وسلم ، توجد فى طبيعة ما يحاول أعداء المسلمين من أهل الكتاب وغيرهم أن يضلوا الناس عنه أو على الأقل أن يشككوه، بل فيهم من يسوق آيات قرآنية وهو يعتمد وضعها فى غير موضعها، وحملها على ما لا يتفق مع حقيقتها. وذلك كأن يستدلوا بعدم عمومية رسالته صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : «انا أنزلناه قرآنا عربيا» وقوله : «وما أرسلنا من رسول الا بلسان قوم» وقوله : «هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم» وقوله : «لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك» وقوله : «وانذر عشيرتك الأقربين» .

وقد تكفل الإمام القرافى بالتشنيع على هؤلاء الذين حرفوا الكلم عن مواضعه، ووضعوا الشئ فى غير موضعه من وجوه :

١ - وصف القرآن بكونه عربيا بالنسبة للآية الأولى وبيان كونه سبحانه لا يرسل الرسول الا بلسان قومه بالنسبة للآية الثانية، لا يدل على خصوص دعوته صلى الله عليه وسلم بل الحكمة ان الله تعالى انما يعث رسله بالسنة قومهم ليكون ذلك أبلغ فى الفهم عنهم ومنهم، وهو أيضا يكون أقرب لفهمهم عنهم جميع مقاصدهم فى الموافقة والمخالفة وازاحة الأعذار والعلل والأجوبة عن الشبهات المعارضة، وايضاح البراهين القاطعة فان مقصود الرسالة فى أول وهلة انما هو البيان والارشاد ، وهو مع اتحاد اللغة أقرب .

فاذا تقررت نبوة النبى فى قومه قامت الحجة على غيرهم فان أقارب الانسان ومخالطيه المطلعين على حاله والعارفين بوجه الطعن عليه أكثر من غيرهم، اذا سلموا ووافقوا فغيرهم أولى أن يسلم ويوافق تلك هى الحكمة فى ارسال الرسول بلسان قومه ومن قومه ، لا أن المقصود لا يتعدى برسالته لغير قومه . وفرق بين قول الله تعالى «وما أرسلنا من رسول الا بلسان قوم» وبين قوله وما أرسلنا من رسول الا لقومه فالقول الثانى هو المفيد لاختصاص الرسالة بهم، لا الأول، بل لا فرق بين قوله، وما أرسلنا من رسول الا لقومه وبين قوله، وما أرسلنا من رسول الا مكلفا بهداية قومه، فكما ان الثانى لا اشعار له بأنه لم يكلف بهداية غيرهم، فكذلك



الأول، فمن لم يكن له معرفة بدلالة الألفاظ ومواقع المخاطبات سوى بين المختلفات ، وفرق بين المؤتلفات .

٢ - لو قارنا بين اللغة التى نزل بها القرآن وهى العربية وبين اللغة التى نزل بها التوراة وهى العبرية واللغة التى نزل بها الإنجيل وهى الرومية، لوجدنا أن نفس الاعتراض يوجه الى التوراة والإنجيل، فالنصارى قاطبة ليست لهم دراية بالعبرية، فهم لذلك بين أمرين : اما الا يقولوا بالتوراة، وهذا لا يتفق مع واقع أمرهم لكونهم يقولون بكتب العهد القديم، وخاصة منها الأسفار الخمسة (سفر التكوين، وسفر الخروج، وسفر العدد، وسفر اللاويين، وسفر تثنية الاشتراع). واما ان يقولوا بالتوراة ولا سبيل لهم الا أن يتعلموا اللغة العبرية أو يترجموا الى لغتهم تلك الأسفار العبرية. فكيف ينتقدون على القرآن بما يطبقونه عمليا بالنسبة الى التوراة، وما قلناه فى التوراة بالنسبة للنصارى نقوله أيضا فى الأناجيل بالنسبة للعبرين فهؤلاء وان كانوا أعداء للمسيح فهم يقولون بكتب العهد الجديد الشاملة للأناجيل الأربعة، ورسائل بطرس ورسائل يوحنا، ورؤيا يوحنا وغير ذلك .

٣ - تطبيقه العملى فى تبليغ رسالته يؤكد أنه صلى الله عليه وسلم ، مبعوث الى الناس أجمعين، ذلك انه قاتل اليهود وبعث الى الروم يندبهم وكتابه عليه السلام بقى محفوظا فى بلادهم أزمانا عديدة يفتخرون به . كما أنه راسل المقوقس ملك القبط بمصر ، وكسرى ملك الفرس بفارس ، ومن المسلم به أن رسل الله خاصة خلقه وخيره عباده معصومون من الزلل ميرأون من الخطأ فلا يعقل أن يكون مبعوثا الى خصوص قومه ثم يخالف ويعمم دعوته، فما كان انذاره لغير العرب الا تنفيذا لأوامر الله له . ولم ينكر أولئك الذين تلقوا رسائله التى بعثها لهم كما أن قومه لم ينكروا ذلك، وكل هذا يؤكد عموم بعثته، خصوصا وان من جملة ما نزل عليه صلى الله عليه وسلم ، قوله تعالى : «وما أرسلناك الا كافة للناس» فالآية تصريح واضح بالتعميم لا تترك أى التباس ، ولا تبقى أية شبهة لمن يدعى التخصيص ، واذن ، فلا يخلو: اما أن يكون المنتقدون لا يعتقدون أصل الرسالة لا لقومه ولا لغيره، فمن حقهم أن يطالبوا المسلمين بما يقتضى صدق اعتقادهم فى شعول الدعوة المحمدية ووجودها، وليس من حقهم أن يقولوا مثلا، أوضحوا لنا دعوى كتابكم لأن مثل هذا القول يستلزم الاعتراف بالكتاب على أنه خاص بالعرب .

واما أن يكون المنتقدون يعتقدون أصل الرسالة لكنها مخصوصة، فيلزمهم بمقتضى ما بيناه أن يقولوا بالتعميم، والآية الثالثة التى أوردنا «هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم» لا تقتضى انه لم يبعثه سبحانه لغير العرب، فمن المعروف أن الملك العظيم اذا قال: بعثت الى موضع كذا رسولا من أهله، لا يدل قوله على أنه ليس بيده رسالة أخرى لغير قومه، كما أنه لا يدل قوله على أنه لا يأمر قوما آخرين بغير تلك الرسالة فلا حجة لمن يريد أن يضلل الناس بالآية الكريمة. كذلك لا حجة لهم فى الآية الرابعة التى أوردنا وهى قوله سبحانه: «لتنذر قوما ما أنذر آبائهم من قبلك»، لأنها لا تفيد انه (صلى الله عليه وسلم) لا ينذر غيرهم، بل لما كان الذين يتلقون الوحي أولاهم العرب كان التنبيه بمنة الله على رسوله بهداية قومه أولى من غيرهم. فنظير الآية أن يقول السيد لخادمه: بعثتك لتشتري ثوبا، فقوله هذا لا ينافي أن يكون السيد أمر خادمه بشراء الطعام مثلا وإنما خصص الثوب بالذكر لمعنى اقتضاه، وسكت عن الطعام لأن المقصد لا يتعلق به، والعقلاء دائما يتكلمون فيما يوجد سببه ويسكتون عما لم يتعين سببه، وان كان كل من المذكور والمسكوت حقا واقعا.

ونفس الأمر حاصل بالنسبة للرسالة المحمدية، فهى عامة، ولما كان المقصود اظهار المنة على العرب خصوصا بالذكر، وهكذا فعل القرآن فى الآيات التى خصصت بالذكر بنى اسرائيل كما خصصت كل فرقة من اليهود والنصارى بالذكر، اذ المقصود تنبيه المذكورين وارشادهم، من غير أن يذكر القرآن غيرهم من الآيات المتعلقة بهم وهذا هو شأن الخطاب أبدا فلا معنى أن يغتر جاهل بأن ذكر شخص معين يقتضى نفى الحكم عن غيره. وعلى هذا قوله تعالى فى الآية الخامسة التى أوردنا «وانذر عشيرتك الأقربين» فليس فيها دليل على أن لا ينذر غيرهم.

فلو قال القائل: أدب ولدك، لا يدل على أن القائل نفى التأديب عن الغلام بل الجملة تقتضى تأديب الولد أولا لأن الغرض مخصوص به، ولعله اذا فرغ من تنفيذ وصيته على الولد يقول له: وغلامك أيضا أدبه. وإنما كان البدء بالولد للاهتمام به.

ولا يخطر ببال عاقل أن يكون الكلام الثانى مناقضا للأول فقرايته (صلى الله عليه وسلم) أولى الناس ببره عليه الصلاة والسلام واحسانه. فخصهم الله بالذكر كذلك لا لأن غيرهم غير مراد كما أوضحنا فى صورة الولد والغلام. فتحصل أن هذه الآيات جاءت بألفاظ لغة العرب فهم أعلم بها. واذا كان عليه السلام هو المتكلم بها ولم يفهم تخصيص الرسالة، بل

انذر غير العرب من الأمم، وأهل اللغة العربية لم يفهموا ذلك ، وكذا أعداء النبي من أهل زمانه لم يدعوا ذلك ولا فهموه، ولو أنهم فهموه لأقاموا به الحجة عليهم، فما فهمه الا المنتقدون الذين هم أجنب عن اللغة، فلا ينطبق عليهم الا المثل القائل : (ساء فيها فساء اجابة) .

وأشار العضد في تعريفه بقوله : «ونحوه من الألفاظ» الى ما يؤدي معنى أرسلتك، كبعثتك وأمرتك بتبليغ وغيرهما ، ومنه قوله تعالى : «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك» ولم يفرق في التعريف بين لفظتى الرسول والنبي بل جعله شاملا لهما . والرسول فعول بمعنى مفعول يجوز استعماله بلفظ واحد للمذكر والمؤنث والمثنى والجمع، ويجوز التثنية والجمع ، فيجمع على رُسُل، رُسُل بضمّتين واسكان السين بلغة، قاله في المصباح، وهو مشتق من الرسالة، والرسالة عرفها السعد في شرح النسفية قائلاً هي: سفارة العبد بين الله وبين ذوى الألباب من خلقه يزيح بها عللهم فيما قصرت عنه عقولهم من مصالح الدنيا والآخرة. وكما عرفوا الرسالة عرفوا كذلك الرسول المشتق منها . قال السنوسى في شرح الصغرى (هو انسان بعثه الله الى عبده وإمائه ليبلغهم عنه أحكامه التكليفية والوضعية وما يتبعها من وعد ووعد ونحوه ، وهل شرطه أن يكون له كتاب جديد أو شرع مخصوص أو نسخ شرع من قبله أو لا يشترط فيه شئ من ذلك أقوال ) .

وقوله في التعريف (بعثه الله) أى ابتداء أو بعد الإحياء لمن قبله بدليل انه تعالى نص على أن إسماعيل أوحى إليه بقوله : «وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل» وأنه رسول ، بقوله : «واذكر في الكتاب إسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا»، مع أن أولاد إبراهيم ومن جلتهم اسماعيل كانوا على شريعة أبيهم، وكذلك يقال فيما بعد موسى من أنبياء بنى اسرائيل فانهم بعثوا لتجديد ما نسى من التوراة وبهذا يجاب عن استشكل كثرة الرسل مع قلة الكتب والصحف المنزلة بالنسبة إليهم .

فلا تلازم بين تبليغ الشرع ووجود الكتاب لأنه قد يكون التبليغ بلا كتاب، كما اذا أوحى الى نبي من بنى اسرائيل بتبليغ التوراة، ولم ينزل عليه كتاب أصلا وكوشع بن نون واسماعيل فانهما أمرا بتبليغ الأحكام ولا كتاب لهما ، كما أنه لا تلازم بين تبليغ الشرع ونسخ ما قبله لأن التبليغ قد يكون مع عدم نسخ شريعة من قبله، ولا بين الكتاب والوحى بالشرع لوجود الوحى من غير كتاب فى حق من هو نبي فقط .

والتبليغ المشار اليه فى التعريف هو تبليغ مخصوص . قال البيضاوى عن قول الله تعالى :

«يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك» المراد ما يتعلق به مصالح العباد وقصد اطلاعهم عليه، لا تبليغ كل ما أنزل فان من الاسرار الالهية ما يحرم إفشاؤه .

وقوله في التعريف : وله كتاب أو نسخ الخ . صاحب هذا القول يشترط في الرسول بعد الأمر بالتبليغ أحد أمرين : اما أن يكون له كتاب أو شريعة ناسخة، وأولى اذا اجتمع الأمران. وما اذا انتفيا كما اذا أنزل على نبي من بنى اسرائيل بتبليغ أحكام التوراة الذى أنزل على موسى ولم ينزل عليه كتاب ولم تكن له شريعة ناسخة لشرع موسى فليس برسول ، وهناك قول ثان يقول : لا بد للرسول أن يكون له كتاب وشريعة معا، الا أنه لا يشترط فيها أن تكون ناسخة ولا يلزم من كونه له كتاب أن تكون له شريعة لاحتمال أن يكون كله مواظ .

وتعريف السنوسى ينطبق على تعريف العضد الذى يحتمل أن يشمل كذلك تعريف النبى الذى هو انسان أوحى اليه بشرع مطلقا : فيكون أعم من الرسول على القولين لأنه شامل لما اذا أمر بالتبليغ أو لم يؤمر به قال الأمير وعكس بعضهم قال لأن الرسول يكون من الملائكة . وقيل : النبى انسان أوحى اليه بشرع وأمر بتبليغه، فيكون مساويا للرسول على القول الأول فى الرسول وأعم منه على القول الثانى فيه لزيادة النبى بصدقه على من ليس له كتاب ولا نسخ كيوشع بن نون واسماعيل .

وطريقة المشاركة تراد فهما . قال الشيخ الأمير: وعليه ظاهر قوله تعالى : «وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي»، من حيث تعلق الارسال بهما . وقيل : الرسول من أوحى اليه بواسطة الملك، والنبى بالهام أو مقام .

والملك خارج عن التعريفين لأن المقصود تعريف الرسول فى العرف العام، وهو الذى يظهر لعامة الخلق لكونه مبعوثا لارشادهم. والحكمة فى عدم ارساله كما فى الجواهر للشعرانى ان الارسال اختبار من الله تعالى، وهو انما يكون من بعضهم كما قال سبحانه (ابشرا منا واحدا نتبعه)، وقال تعالى : (لو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) وأيضا عامة الخلق لا يناسبهم الروحانى المحض ، كما يشير اليه قوله تعالى : (قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) .

ولو أننا لم نحمل تعريف الرسول على العرف العام لعرفناه بما يشمل الملائكة لقوله تعالى «جاعل الملائكة رسلا» .

أما الجن فهو أيضا لا يكون نبيا . وقوله تعالى : «يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسول منكم» معناه : من مجموعكم أو من أحدهم، فحذف المضاف كما حذف من قوله تعالى : «يخرج منها اللؤلؤ والمرجان» وانما يخرج من الملح دون العذب . وذهب الضحاك والكلبي وغيرهما الى أن الجن بعث اليهم رسول منهم تمسكا بظاهر الآية . وقال مجاهد : الرسل من الجن ، رسول الرسل من الإنس ، وهم النذر كالذين استمعوا القرآن فبلغوه قومهم ثم قد «ولوا الى قومهم منذرين» الآية . قال : فهذا الاعتبار قليل : رسل منكم، خطابا للجن والإنس .

..وأما الأتني فقد اختلف في نبوتها، فمنهم من يرى نبوة بعضهن كمریم، قال ابن السبكي: ويشهد بنبوتها ذكرها في سورة مريم مع الأنبياء بمثل اللفظ الذي ذكروا به . قال: واختلف في نبوة غيرها، كحواء وأم موسى، وآسية، وسارة، ولم يصح عندنا في ذلك شيء .

فالذكرة مشترطة في النبي على الراجح ، وفي الرسول اتفاقا ولا شاهد لنبوة الأتني في قوله تعالى : «واذكر في الكتاب مريم» لأنه لا يلزم من ذكرها بنفس اللفظ الذي ذكروا به نبوتها لأنه ليس بصريح فيها، والمطلوب في هذه المسألة القطع والذي صرح به في القرآن وصفها بالصديقة فقط . وكذلك لا شاهد في ارسال جبريل لها، وقوله: «انما أنا رسول ربك» الآية . لا يستلزم المطلوب الذي هو نبوتها وان قال به الأشعري وابن وهب وغيرها. ويؤيد رجحان عدم نبوتها ما ذكره ابن الهمام من أن أمر النسوة مبني على التستر والقرار في البيوت، وزاد الشيخ زين الدين قاسم ذاكراً أن مما يؤيد عدم نبوتها قوله تعالى «وما أرسلنا من قبلك الا رجالا يوحي اليهم» ويقول علي رضي الله عنه : (لو كانت الخلافة تصلح لإمرأة لكانت عائشة رضي الله عنها تستحق الخلافة . أضف الى ذلك ان النساء لا يصلحن للامارة والسلطنة والقضاء وإمامة الصلاة بالاجماع ، وهذه الأحكام من فروع النبوة والرسالة، فكن لا يصلحن لأصل النبوة أولى) .

وسر تعدد الرسل والأنبياء أن مصالح الناس تتفاوت بالأزمنة ولهذا تنسخ الأحكام . أما حكمة بعثتهم فقد بينها السعد فقال انه تعالى خلق الجنة والنار وأعد فيها الثواب والعقاب وتفاصيل أحوالها. وطريق الوصول الى الأولى والاحتراز من الثانية مما لا يشغل به العقل . وكذا خلق الاجسام النافعة والضارة ولم يجعل للعقول والحواس الاستقلال بعرفتها أى كالذكى والميتة، وكذا جمل من القضايا ممكنات لا طريق للعقل الى الجزم بأحد جانبيها، وواجبات وممتعات لا تظهر للعقل الا بعد نظر دائم وبحث متواصل لو استقل الانسان به

لتمطلت أكثر مصالحه . فكان من فضل الله ورحمته وإرسال الرسل بيان ذلك كما قال : «وما أرسلناك الا رحمة للعالمين» ومقتضى الحكمة التى هى المصلحة والعاقبة الحميدة أن تكون الرسالة بحسب الأصل ممكنة وواجبة بالعرض . والمعتزلة جعلوا إرسال الرسل واجبا عقلا لكونه فى نطاق الصلاح والأصلح وهم يوجبون بعثة الرسل رغم مذهبهم ان الاحكام مدركة بالعقل وجوباً لكونهم يجوزون وقوع العقل فى الخطأ فالأصلح بعث رسول معصوم وان وجود الرسول ادعى للامثال والهداية مادام المرسل اليهم يتيقنون انه مبعوث من قبل الله تعالى .

ثم ان النبوة والرسالة ختمت بالرسول عليه السلام، وبرسالته التى هى الاسلام فهو الذى ارتضاه الله عز وجل ولن يقبل من أحد سواه فهو دين العقائد الصحيحة والعبادة السليمة، وهو شريعة الحياة الانسانية ومنهج الطبيعة البشرية، فأحكامه ملائمة لكل عصر ما تقدم العمران، وسمت مدارك بنى الانسان، ومكنونات تعاليمه تبدو رويداً رويداً على مر الزمان، وتنجلى للباحثين صلاحيتها فى كل آن، انها دائمة القداسة، ومعروفة الأصالة وواضحة الدلالة، يسهل الورد من معينها على المتعطين، ويتيسر بها رفع المخرج الفكرى عن المحائزين، ومع سهولتها وتيسرها لا تنصاع لتحريفات المنحرفين ولا تخضع لتأويلات المغرضين. وبشرها وتعيمها خرج العالم من دياجير الجهل الى نور العرفان، وسمت البشرية من حضيض الشقاء الى أوج السعادة .

وقد ضرب المثل الأعلى فى تفهم تعاليم الاسلام وتطبيقها على مقتضى الشريعة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذا التابعون وغيرهم، من أبناء قرون الاسلام الأولى، وبفضلهم تواصلت أمانة التبليغ، التى تحملوها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل الناس على اختلاف أقطارهم وطبائعهم فى دين الله الذى هو دين الفطرة، وأحتمت أفواجهم بظلاله عن طوعية، ووجدوا فى حماه السلامة، والرفاهية، وباجتهادهم تكسرت أغلال العقول، وانعكست قيود الافكار فلمس الناس أن الاسلام دين العلم والحكمة، وبتعزيزهم للدعوة الاسلامية بالحجة الواضحة آمن الناس أن الاسلام دين الحق، وبانصافهم ولو على حساب النفس والأهل، أجمع المتصفون على أن الاسلام وحده دين العدالة .

لقد استطاع أسلافنا - برد الله ثراهم - أن يكونوا قادة العالم، ورأسه المفكر وبالقرآن الكريم وسنة النبى صلى الله عليه وسلم تباوأ أوج العز والسؤدد، ونشروا بين سكان البسيطة مثلها العليا، وفضائلها القوية، فعاشوا فى ظليها سعداء آمنين .